رسالة للجاحظ

نشرها للمرة الاولى شارل بلّا
استاذ في معهد الدراسات الاسلامية في باريس

يتضمن المختار من كلام الجاحظ المحفوظ في مكتبة برلين[1] — المنقولة الان الى توبنجن (Tübingen) — عدة قطع من رسالة او رسائل[2] وجهها الجاحظ إلى شخصية عباسية لا يذكر اسمها غير أنها بلا ريب أبو الوليد محمد بن أحمد بن ابي دؤاد ؛ فيمدح فيها المرسل إليه ووالده القاضي الشهير وأخيرًا الخليفة العباسي المعتصم .

أما هذه النخب فقد جعلها صاحب المجموعة منفصلة عن بعضها ولكن ليس من المستبعد انه اقتبسها من رسالة واحدة ؛ فيدل على ذلك تماسك الاجزاء ووحدة الفكر والتعبير ؛ ومهما كان من أمر فيبدو جلياً ان الاديب الذي قام بتلخيص الرسالة راعه بنوع خاص براعة الجاحظ وفصاحته حتى انتخب ما لا يفيد الا ان ناثرًا نابغاً كان في اوائل القرن الثالث للهجرة يقدر على مباوزة الشعراء في ميدان المديح كما انه اصبح قادرًا على مبارزتهم في ميدان الرثاء[3] والهجاء[4] .

فمن هذا الوجه لا تخلو الرسالة من اهمية ولكنا لو لم نجد فيها اكثر من ذلك لما تكلفنا نشرها ولوضعناها جانباً — ولو مؤقتاً —

ومع ذلك فما يستوقف النظر قول الجاحظ[5] : « إني أيدك الله قد ألّفت

---

١) رقم ٥٠٣٣ في فهرست Ahlwardt ؛ لقد فحصنا عن هذه المخطوطة ففصّلنا محتوياتها في مقال سيظهر في المجلة الالمانية *Oriens* إن شاء الله —

٢) من ظهر الصفحة ١٧ إلى ظهر الصفحة ٤٦

٣) انظر الرسالة التي نشرها طه الحاجري في الكاتب المصري ، يونيه ١٩٤٦

٤) انظر الرسالة التي نشرها طه الحاجري في الكاتب المصري ، شباط ١٩٤٧

٥) ص. ٣٩

كتاباً احتجت الى عرضه عليك واستشارتك فيه » دون أي إشارة الى اسم الكتاب أو بعبارة أصح دون ان يحتفظ صاحب المجموعة بما يوضح هذا القول.

فلحسن الحظ قد أتيح لنا ان نفحص عن مخطوطة اخرى محفوظة في مكتبة داماد ابراهيم باشا[1] فشاهدنا اتفاقاً جزئياً فيما بين آخر النص الاول وبين رسالة من رسائل المجموعة الثانية موسومة بنفي التشبيه ويظهر عند الفحص والتأمل ان أصل النصين واحد وهو رسالة طويلة أرسلها الجاحظ الى ابي الوليد يطلب منه — جوهرياً — المساعدة على « تحليد » كتابه في « الرد على المُشَبِّهة[2] » ؛ فالطلب غارق في مديح متدفق .

هكذا يلوح ان صاحب نسخة برلين تناول الرسالة فاختار ما عساه ان يكون نماذج حية من الفصاحة الجاحظية وأسقط معظم الاعلام والابيات والاشارات إلى حوادث سياسية او دينية بيد ان صاحب المختار الاخر لم يهتم الا بالنصف الثاني فجعله رسالة مستقلة « في نفي التشبيه » ؛ وبفضل تداخل المختارين أمكننا إقامة نص موضع بمكان[3] .

◆

فان اعتبرنا ما ورد من ذكر أبي الوليد وحداثته[4] ومن ذكر المعتصم وخلافته حق لنا القول إن تاريخ الرسالة يتراوح بين سنة ٢١٨ وسنة ٢٢٧ للهجرة ؛ ففي تلك المدة كان الجاحظ ، على ما يخبرنا به المؤرخون ، يتصل بالوزير محمد بن عبد الملك الزيات ويسيل عن منافسه القاضي احمد بن ابي دؤاد: فتناقض رسالتنا هذا الخبر اذ نرى الجاحظ يبذل جهوده للاقتراب الى ابن ابي دؤاد ويمدح ابنه ابا الوليد ويراسله ويحاول تحقيق غرضه بصورة حاذقة

١) رقم ٩٤٩ من وجه الصفحة ١٠٦ الى ظهر الصفحة ١١٣ ؛ راجع مجموع رسائل الجاحظ، ط. Kraus والحاجري ص د — ه —

٢) ضاع هذا الكتاب الوارد ذكره في الحيوان ج ١ ص ٩ ؛ أما رسالتنا فلم تذكر البتة لانها شخصية غير معدة للنشر .

٣) لا شك في ان جميع آثار الجاحظ جديرة بالنشر والبحث غير اننا اقتصرنا على النصف الذي ورد في نسخة داماد ابراهيم باشا .

٤) لا نعرف تاريخ ولادته بل نعلم انه كان نائباً لابيه منذ سنة ٢١٨ فلعله كان حينئذ في العشرين من عمره ؛ راجع L. Massignon في WZKM سنة ١٩٤٨ ، و *Encyclopédie de l'Islam* مادة أحمد .

وذلك انه يغتنم فرصة نادرة هي وضع كتاب في مسألة كلامية لا تهم ابن الزيات بقدر ما تهم قاضي القضاة لانها داخلة في صلاحياته ؛ فان ابن ابي دؤاد كان رئيس المحكمة المنشأة بعد ان صار الاعتزال ديناً رسمياً وبصفته هذه كان من واجبه ان يقمع كل مخالفة ويمتحن المتهمين والمرتابين ويكافح النظريات والمذاهب المعادية للعقيدة الرسمية ويقنع اصحاب السنّة — او الحشوية كما يسميهم الجاحظ — اذ كانوا يعارضون المعتزلة في الصفات وخلق القرآن من جهة وفي موقفهم السياسي من جهة اخرى حيث انهم يتعصبون لمعاوية ويقاومون العباسيين[1] .

فنرى الجاحظ — وان لم نعتبره كاتباً رسمياً او شبه رسمي — يؤلف عدة رسائل في هذه المشاكل المهمة منها الرد على المشبّهة ومنها كتاب العرب والموالي اذ كانت مزاعم العجم تزيد في خطورة الحالة السياسية ؛ ثم يعرض جميع هذه الكتب — وبالاقل الكتابين المذكورين[2] — على ابي الوليد ويستشيره فيها قائلاً إنه يريد ان يساعد ولاة الامر على تطبيق السياسة العباسية ويضع بين ايديهم جميع الحجج التي يحتاجون اليها ؛ وإلى جانب ذلك يرمي الجاحظ الى غاية اخرى تظهر بين السطور وهي أن يدنو الى ارباب العقد والحل فينتفع باحسانهم وصلاتهم .

فلا تكاد تأتي هذه الرسالة بأخبار جديدة ووثائق بديعة عن آراء الجاحظ الفلسفية لكنها تجعلنا نتدرج الى إدراك نفسيته وتصرفه ولولا فيها الا ذلك لكانت جديرة بالنشر .

Ch. Pellat

---

١) راجع مقالة لحبيب الزيات في المشرق ، سنة ١٩٣٨ ص ٤١٠ — ٤١٥ عنوانها التشيع لمعاوية في عهد العباسيين ورسالة الجاحظ في النابتة (او : في بني امية) وترجمتها التي ستظهر عن قريب في الجزائر إن شاء الله .

٢) النابتة موجهة ايضاً الى ابي الوليد فيخبره فيها المؤلف بانهاء كتابه في العرب والموالي .

بسم الله الرحمن الرحيم[1]

أطال الله بقاءك[2] وحفظك وأتمّ نعمته عليك وكرامته لك

قد عرفتَ — أكرمك الله — ما كان الناس فيه من القول بالتشبيه والتعاون عليه والمعاداة فيه ، وما كان في ذلك من الإثم الكبير والفرية الفاحشة ، وما كان لأهله من الجماعات الكثيرة والقوّة الظاهرة والسلطان المكين ، مع تقليد العوام ومَيْل السِفلة والطَغام ؛ وليست للخاصّة قوّة بالعامّة ، ولا للعِلية قوّة على الأرذال ؛ وقد قالت الأوائل فيهم وفي الاستعاذة بالله منهم ؛ قال علي بن أبي طالب — رحمة الله عليه — : « نعوذ بالله من قوم إذا اجتمعوا لم يَملكوا وإذا تفرّقوا لم يُعرفوا » ؛ وقال واصل بن عطاء[3] : « ما اجتمعوا إلّا ضرّوا ، ولا تفرّقوا إلّا نفعوا »؛ فقيل له : « قد عرفنا مضرّة الاجتماع ، فما منفعة الافتراق ؟ »؛ قال : « يرجع الطيّان إلى تطيينه والحائك إلى حياكته والمَلّاح إلى مِلاحته والصائغ إلى صياغتــه وكل إنسان إلى صناعته ، وكل ذلك مَرْفِقٌ للسلمين ومَعونة للمحتاجين » ؛ وكان عمر بن عبد العزيز — رضي الله عنه — إذا نظَر إلى الطعام والحشو[4] قال : « قبّح الله هذه الوجوه التي لا تُعرف إلّا عند الشر ! »؛ وقال الخُرَيْمي[5] عند ذكره إيّاهم في شعره بالتعادي مع المخلوع[6] :

١ — من البَرادي[7] يَرِثُها[8] ومن الـ خُوص إذا استَلأمَت مَتافِرُها

٢ — لا الرزقَ تَبْغي ولا العَطاء[9] ولا يَحشُرُها بالعَناء[10] حاشِرُها[11]

---

١) قد استعملنا الرمزين الآتيين: د = مخطوطة داماد ابراهيم باشا ؛ ب = مخطوطة برلين

٢) د : بقاك . ٣) د : عطا

٤) كذا وعادة الجاحظ ان يقول : الحشوة .

٥) ابو يعقوب اسحق بن حسان الخريمي شاعر اديب معاصر للجاحظ ؛ انظر ترجمتنا لكتاب البخلاء .

٦) المخلوع = الأمين .

٧) د : والطبرى : البرادي وليس لها معنى مرضي .

٨) د : يتراسها . ٩) د . العطا ١٠) الطبري : للفناء .

١١) من المسرح ؛ فوردت القصيدة الطويلة في تاريخ الطبرى ، سنة ١٩٧

وقال شبيب بن شَيْبة[1]: « قاربوا هذه السفلة وباعِدوها ، وكونوا معها وفارِقوها وأعلموا أن الغلبة لمن كانت معه ، وأن المقهور من صارت عليه » ، وقد وصفهم بعض العلماء فقال: « يجتمعون من حيث يفترقون ، ويفترقون من حيث يجتمعون ، لا يقلّ غرُبهم إذا صالوا ولا تنجع فيهم الحيلة إذا هاجروا ».

والعوامّ — أبقاك الله — إذا كانت نَشْرًا، فأمرُها أيسر ومدّة هَيْجها أقصر؛ فإذا كان لها رئيس حاذق ومُطاع مدبّر وإمام مقلّد ، فعند ذلك ينقطع الطمع ويموت الحق ويُقتل المحقّ ؛ [د: وجه ١٠٧] فلولا أن لهم متكلّمين وقُصّاصاً متفقّهين وقوماً قد بايَنوهم في المعرفة بعضَ المباينة ، لم يلحقوا بالخاصّة ولا بأهل المعرفة التامّة ، ولكنّا كما نخافهم نرجوهم[2] وكما نُشفق[3] منهم نطمع فيهم .

ثم قد علمتَ ما كنّا فيه من إسقاط شهادات الموحّدين وإخافة علماء المتكلّمين ؛ ولولا الكلام لم يقم[4] فقه دين ولم نبنْ من الملحدين ولم يكن بين الباطل والحقّ فرْق ولا بين النبيّ والمتنبّي فصْل ، ولا بانت الحجّة من الحيلة والدليل من الشبهة؛ ثم لصناعة الكلام مع ذلك فضيلة على كلّ صناعة ومزيّة على كلّ أدب ، ولذلك جعلوا الكلام عيارًا على كلّ نظر ونِظاماً على كلّ قياس؛ وإنما جعلوا له الأمور وخصّوه[5] بالفضيلة لحاجة كلّ عالم إليه واستغنائه عنه.

فلم نزل[6] — أكرمك الله — كذلك حتى وضع الله من عزّهم ونقص من قوّتهم — وليس لأمر الله مردّ ولا لقضائه مَدفع — ، وحتى تحوّل إلينا رجال من قادتهم ومن أعلامهم والمُطاعين فيهم ، وارتثّ قوم ونافق آخرون ، وحتى تحوّلت المحنة عليهم والتُّقيّة فيهم ؛ وذلك كلّه على يد شيخك وشيخنا[7] بعدك — أعزّه الله — بما بذل من جهده وعرّض من نفسه وتفرّد بكروهه وغرْغر مُرارَه صابرًا على جسمه ، يرى الكثير في ذلك قليلًا والإغراق تقصيرًا وبذلَ النفس يسيرًا ، على حين خانَ كلُّ بطل وجارَ كلُّ مقدَّم وعرَّد كلُّ رئيس

---

١) د : شبب بن شبة ؛ شبيب بن شيبة خطيب بصري شهير ، راجع البيان للجاحظ.
٢) د : نرحوهم .
٣) د : نسفق .
٤) د : نقم .
٥) د : وخصوا .
٦) د : نزل .
٧) أي القاضي احمد بن ابي دوّاد .

وأصاب كلّ مستبصر وطاح كلّ نفّاج واستخفى كلّ مُرَاء[1] ، وحتى صاروا هم الذين يشيرون عليه بالملاينة ويحتشون عنده المقاربة ويخوّفونه العاقبة ويزعمون أن لكلّ زمان تدبيرًا[2] ومصلحة وأن إبعادهم أنفر لطبائعهم وأن إطلاقهم أنجع فيما يُراد منهم ، وحتى سنوا المداهنة مداراة وإعطاء الرضى تقيّة والشدّة عند الفرصة خُرقًا والانحياز[3] مع صواب الإقدام رفقًا وموالاة المخالف مخالفةً والمصافاة معاشرةً والمهانة حِلمًا والضعف[4] في الدين[5] احتمالًا ، كما سنّى قومٌ الفرارَ انحيازًا والبُخل اقتصادًا والجائر مستقصيًا والبلاء عارضًا والخطَل بلاغةً .

فكذلك [د:ظهر ١٠٧] كانوا وكان ، وعلى هذا افترق أمرهم وذلك مشهور عنهم ، ثم يصول أحدهم على مَن شتمه ويسالم مَن شتم ربّه ، ويغضب على مَن شبّه أباه بعبده ولا يغضب على من شبّه اللهَ بخلقه ، ويزعم أن أحاديث المشبّهة ، تأويلًا ومجازًا ومخارج[6] حق[7] وصدق : فإذا قيل [.....][8] طلب لهذا المجاز ، ظلم وقال ما يليق بلفظ الحديث ، فتكون شهادته[9] لصحّة أحاديثهم مبرًا فيصير فيما يدّعي من خلاف تأويلهم مدّعيًا ؛ ولو كانت هذه الأحاديث حقًا ، كان قول النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — : «سيفشو الكذب بعدي ، فما جاءكم من الحديث فأعرضوه على كتاب الله » باطلًا ؛ فهذا المذهب لمن ينتحل طريقتنا ويسلك — بزعمه — سبيلنا ، جورٌ شديد ومذاهب قبيحة وتقرّب[10] فاحش ؛ وليس ينبغي لديّان[11] أن يوادّ مَن حادّ الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم وأبناءهم وإخوانهم وعشيرتهم ؛ فمتى إذًا تزول التقيّة ويجب إظهار الحقّ والنُصرة للدين والمباينة للمخالفين حتى[12] يموت الخصم ويَبيد أثره ويهلك عقبه ويقلّ ناصره ويزول جميع الخوف ويكون على يقين من السلامة ؟

---

١) د : مراء .
٢) د : بدون نقط .
٣) د : الانحياز .
٤) د : والضعف .
٥) د : الدين .
٦) د : مخارجا .
٧) د : وانما حق .
٨) د : بياض في الاصل قدره كلمتان والمعنى : فاذا قيل له : بيّن مقالك وانتِ بتاويل هذا المجاز الخ
٩) د : شهدته .
١٠) د : تقرب .
١١) د : لديان .
١٢) د : حين .

وكيف يكون القائم حينئذ[1] بالحق مطيعاً وفيه مظيلاً [.....][2] فقد سقطت المحنة وزالت البلوى والمشقّة ؛ وهل المعصية إلّا ما مازجه الهوى والشهوة، وهل الطاعة إلّا ما شابَهُ[3] المكروه والكلفة ؟ وكيف يُتكلّف ما لا مؤونة فيه وكيف يُجهد ما لا مَزوية عليه ؟ وكيف يكون شجاعاً مَن تقدّم في الأمن وتكمّن في الخوف ؟ أو ليست النار محفوفة بالشهوات ؟ أوَليست الجنّة محفوفة بالمكاره ؟ وكيف صاروا في باطلهم أيّام قُدرتهم أقوى منّا في حقّنا أيّامَ قدرتنا؟

وقد علمتَ — أرشد الله أمرك — أن التشبيه وإن كان أهله مقموعين ومهاملين وممتحنين، فإن عدد الجماجم على حاله وضمير أكثرهم على ما كان عليه، والذين ماتوا قليل من كثير ؛ ونحن لا ننتفع بالمنافق ولا نستعين بالمرتاب ولا نثق بالجانح ؛ وإن كانت المباداة قد نقصت ، فإن القلوب أفسدُ ممّا[4] كانت؛ وقد كانوا يتّكلون [د:وجه ١٠٨] على السلطان والقدرة وعلى العدد والثروة وعلى طاعة الرَّعاع والسِفلة : فقد صاروا اليوم إلى[5] المنازعة أميَل وبها أكلف، لأنهم حين ما ثبتوا[6] في القهرَ بالحشوة [و] السِفلة وبالصناع وبالباعة وبالولاة الفَسَقة ، وقلوبهم[7] ممتلئة ونفوسهم هائجة، ولا بدّ لمن كانت هذه صفته وهذا نعته من أن يستعمل الحيلة والحجّة إذا أعجزه البطش[8] والصولة ؛ وكلّ من كان غيظه يفضل عن حِلمه وحاجتُه تفضل عن تناعته، فواجب أن ينكشف[9] تناعه ويظهر سرّه ويبدو مكنونه .

وقد أطمعني فيهم مناظرتُهم لنا ومقايستُهم لأصحابنا وقد صاروا بعد السبّ يخفون وبعد تحريم[10] الكلام يجالسون وبعد التصامّ يستمعون وبعد التجليح يُداورون ، والعامّة لا تفطن لتأويل كنّها ولا تعرف مقارنتها : فقد مالت إلينا على قدر ما ظهر من ميلنا وأصغت لما ترى من استماعها .

وقد كتبتُ — مدّ الله في عمرك — في الردّ على المشبّهة كتاباً لا يرتفع

---

١) د : حينئذ .
٢) د : بياض في الأصل .
٣) د : شابه او شانه .
٤) د : ما .
٥) د : على .
٦) د : بدون نقط
٧) د : كذا ولعل الصواب : كانت قلوبهم
٨) د : بدون نقط .
٩) شكشف .
١٠) د : بدون نقط .

عنه الحاذق المستغني[1] ولا يرتفع عن الرّيض[2] المبتدئ.

وأكثرُ ما تعتمد[3] عليه العامة ودهماء أهل التشبيه من هذه الأمور ويشمل[4] عليه الفضل من حشوة الناس ويخدع به المحدّثون من الجمهور الأعظم، تحريفُ آي كثيرة[5] إلى غير تأويلها وروايات كثيرة إلى غير معانيها؛ وقد بيّنتُ ذلك[6] بالوجوه القريبة والدلالات المختصرة وبالأشعار الصحيحة والأمثال السائرة، واستشهدتُ الكلام المعروف والقياس على الموجود، وهو مع ذلك كلّه كتاب قصد ومقدار عدل، لم يفضل عن الحاجة ولم يقصر عن مقدار البُغية، على أن الكلام لا ينبغي أن يكثر — وإن كان حسناً كلّه — إذا كان السامع لا ينشط له[7] وجاز قدر احتماله، لأن غاية المتكلّم إقناع[8] المستمع.

وقد قال الأوّلون: «قليل الموعظة مع نشاط الموعوظ خيرٌ من كثير وافق من الاستماع نبوةً ومن القلوب [د: ظهر ١٠٨] مَلالة»؛ قال بكر بن عبدالله المُزَني[9]: «ليس الواعظ مَن حمل أقدار السامعين وإنابة المرتدّين وملالة المستظرفين»؛ وقال علي بن أبي طالب — رضوان الله عليه —: «إن هذه القلوب تملّ كما تملّ الأبدان: فابتغوا لها طُرَف الحكمة»؛ وقد كان يقال: «إن للقلوب شِرّةً وإقبالاً وفترة وإدبارًا: فأتوها من حيث شهوتُها وإقبالها»؛ وكان يقال: «إذا أكره القلب عمِيَ»؛ وقال واصل بن عطاء: «طول التحديق يكلّ الناظر وناظر القلب أضعفُ منه»؛ وزعم عمر بن أبي [....][10] قال: «قال قَسامة بن زهير[11] روّحوا[12] هذه القلوب[....][13] من الذكر»؛ وقال عبد الملك بن قُرَيب[14]: «قال أبو الدرداء[15]: إني لأستجمّ نفسي ببعض الباطل

١) د: المستغني.
٢) د: الربض.
٣) د: بدون نقط.
٤) د: ويشمل او ويشهد.
٥) د: كثير.
٦) يعني في الكتاب المشار إليه.
٧) د: للسطه.
٨) د: اقناع او استماع.
٩) بكر بن عبدالله المزني تابعي شهير توفي سنة ١٠٨؛ انظر ترجمتنا لكتاب البخلاء.
١٠) د: كلمة غير مقروءة.
١١) قسامة بن زهير تابعي بصري؛ انظر الإصابة رقم ٧٢٨٦
١٢) د: روجوا.
١٣) د: كلمة غير مقروءة.
١٤) هو الأصمعي.
١٥) ابو الدرداء الصحابي الشهير.

كراهة أن أحمل عليها من الحق ما يثقلها»[1] ؛ وكتب عمر بن الخطاب إلى سعد ابن أبي وقاص — رضي الله عنهما — وهو بالقادسية أن « جنّبهم حديث الجاهلية فإنه يذكر الأحقاد ، وعظهم بأيام الله ما نشطوا لاستماعها » ؛ وقالوا : «كان رسول الله — صلعم — يتخوّلنا بالموعظة » ؛ ولذلك أمروا بالجمام وزيارة القبّ ، وروّوا أن « شرّ السير الحقحقة[2] » ؛ ولأنْ ينقص الكتاب عن مقدار الحاجة أحبُّ إليَّ من أن يفضل عن مقدار القوّة لأن الملالة تُبغض الجميع وتُزهد في الكلّ .

فأنا[3] أسألك — أكرمك الله[4] — أن تنظُر في هذا الكتاب وتقرأ ما خفّ عليك منه[5] ؛ فإن كان[6] كما — وصفتَ وكما ضمنتَ[7] ، حثثتَ[8] على قراءته وعلى اتخاذه وعلى تخليده وعلى تدوينه[9] وأمرتَ من يحتاج إلى المادّة وإلى حسن المعرفة[10] من الموافقين ومن[11] الإخوان الصالحين أن ينظروا فيه وأن يبيّنوه[12] ويشيعوه[13] ؛ وقد كنتُ أنا[14] على ذلك قادرًا وبه مستوصياً،ولكن الرجل الرفيع إذا رفع [ب: ظهر ٤٢] الشيء ارتفع ، كما أنه إذا وضع الشيء اتّضع ؛ « وإن كنتُ فيه غلطاً أو لمتّه مستكثرًا كان لك ، بحسن نيّتك وصلاح مذهبك والذي رجوتَ عنده من المنفعة وصلاح[15] قلوب العامّة ، الأجرُ الكبير والثواب العظيم مع ما يقتضي بذلك من ذِمام المتحرّم بك والمتحلّي من نيّتك [د: وجه ١٠٩] ومع اليد البيضاء والصنيع المشكور[16] .

وحرام على كلّ[17] متكلّم عالم وفقيه مُطاع وخطيب مفوّه ، وإن كان[18]

١) د : فاكلها ، وقد أخبرنا رواية البخلاء (ط. الهاجري ص ١٧٠) والحيوان ج ٣ ص٧

٢) انظر امثال الميداني (ط. مصر ١٣٥٢) ج ٢ ص ٢٧٣

٣) ابتداء ب وجه ٤٣

٤) سقط من ب.

٥) سقط من ب.

٦) د : فان يصلح الكلام كان.

٧) ب : كما وصف.

٨) د : حثث.

٩) ب . وتدوينه فقط.

١٠) د : المدونة.

١١) سقط من د .

١٢) د : بدون نقط .

١٣) ب : سقط من : وان يبينوه .

١٤) سقط من ب.

١٥) لعل الصواب وإصلاح.

١٦) ب : سقطت الجملة من : وان كنت فيه غلطا .

١٧) سقط من ب .

١٨) د : كلف .

عنده من هذا[1] الأمر شيء: إلّا أن ياتيكم[2] به ويذكر لكم[3] ما[4] عنده، قلّ ذلك أم[5] كثر، وصادف منكم شغلًا أو فراغًا، لأن ذلك من عندكم أنفق والناس إليه أسرع والقلوب إليه أسكن[6] وهو[7] في العيون أعظم، لِمَا جعل الله عندكم من حسن[8] الاختبار[9] والعلم بمنافع العباد[10] ومصالح البلاد[11]، إذ كنتم المَفزع والمَمْنع والآية[12] والمَفزع[13]؛ ولولا ما تُقلّدتم من أمر الجماعة والقيام[14] بشأن الخاصة والعامة، وإن الشغل برعاية حقّها والدفاع عنها لم يُبقِ في[15] نواكم فضلًا للدعاء والمنازعة ولوضع[16] الكتب بالجواب[17] والمسألة، "لبدا بكم الفرضُ"[18] ولكنتم أحقّ بهذا الأمر، على أنّنا لم ننطق إلّا بألسنتكم ولم "نحتذِ إلّا[19] على مثالكم ولم نقوَ إلّا بما أعرتمونا من فضل قوّتكم؛ "وحرام على العلماء من الفقهاء والمتكلّمين[20] وعلى الرواة من [ب:وجه ٤٣] الأدباء وعلى أهل اللَّسَن من الخطباء ترك[21] معاونتكم ومكانفتكم[22] والجلوس بين أيديكم والاستماع منكم؛ وعليهم[23] أن يُطيعوا أمركم وأن يُنفذوا طاعتكم وأن يخلصوا[24] في الدعاء وأن يمحضوا النصيحة[25] وأن يُضمروا غاية المحبّة[26] وأن يعملوا في نَفْي[27] الغلّ والحسد وأن لا يرضوا من أنفسهم بالنفاق "في أمركم[28] وأن يعلموا أن الحسد لا يقع إلّا بين الأشكال وأن التنافس

---

١) سقط من د.
٢) ب : الا اتاكم.
٣) ب: وذكر لكم ؛ د : ويذكركم.
٤) د : بما.
٥) د : اود.
٦) سقط من ب.
٧) د : وهكو في.
٨) سقط من ب.
٩) د : الاختيار.
١٠) ب : البلاد.
١١) ب : العباد.
١٢) ب و د : الاعة (؟).
١٣) سقط من ب.
١٤) ب : ومن امر القيام.
١٥) ب : من.
١٦) ب : ووضع.
١٧) ب : والجواب.
١٨) سقط من ب.
١٩) ب : نحذ الامور الا.
٢٠) د : سقط.
٢١) سقط من د.
٢٢) ب : ومكانفتكم وتصح ايضا.
٢٣) د : وعلى.
٢٤) د : بدون نقط.
٢٥) ب : في النصيحة.
٢٦) ب : وان يصبروا على المحنة.
٢٧) د : كفى.
٢٨) سقط من د.

لا يكون إلّا مع تقارب الحال ؛ وقد كان يقال : « لا يزال الناس بخير ما تفاوتوا ، فإذا تقاربوا هلكوا »؛ وكان يقال : « ثلاثة توجب الضغن وتكثر من القلّ : المجاورة في المنزل والاستواء في النَّسَب والمشاكلة في الصناعة » ؛ ولذلك قال شَيبِ بن شَيْبة لرجل ادّعى محبّته ونصيحته : « وكيف لا تكون كما وصفتَ وكما ذكرت ولستَ بخطيب ولا جار قريب ولا ابن عمّ نسيب ! » وقال بعض الحكماء[1] : « لو لم تعرفوا من لؤم الحسد إلّا أنه موكّل بالأدنى فالأدنى[2] ولا[3] يقع ذلك[4] بين المتباينين ، ولا يكون إلّا في المتقاربين[5] ، ولا يكون الطلب[6] إلّا بالطمع ولا يكون الطمع [د : ظهر ١٠٩] إلا بالسبب : فإذا انقطع السبب انقطع الطمع ، وفي عدم الطمع [عدم] الطلب »[7] ؛ وكيف يتكلّف الطيران مَن لا جناح له[8] وكيف يرجو إصلاح[9] أمر العامّة[10] وترتيب الخاصّة[11] مَن قد عجز عن تدبير نفسه[12] وقصر عن تقويم[13] عبده ؟ وإنصاف اللسان قليل وإنصاف القلب أقلّ منه .

« ونحن نرغب إلى الله في صلاحهم ، فإن في صلاحهم صلاحَ قلوبنا لهم[14] ؛ [ب : ظهر ٤٣] وقد جعل الله الشكر موصولًا بالمزيد ، ومن الشكر على نعمة الله[15] علينا بكم أن نعظّم ما عظّم الله من أمركم ، ومَن صغّر ما عظّم الله فقد عظّم ما صغّر الله ، ولا يفعل ذلك إلّا الصغير القدر والخامل الذكر والجاهل[16] بالأمر .

وكيف لا تكونون على ما خبرتُ وكما وصفت وقد أغنيتم من العَيلة وأنستم من الوحشة وجمعتم الشمل[17] وأعدتم الألفة[18] ورددتم الظَّلامة وأحييتم

---

١) ب : سقطت الجملة من : وقد كان يقال
٢) سقط من ب
٣) د : وليس
٤) ب : الحسد
٥) د : ولا يجوز في المعارمين
٦) ب : الظلم
٧) ب : او من عدم الطلب
٨) ب : ليس له جناح
٩) د : صلاح ؛ سقط من ب
١٠) ب : الخاصة
١١) سقط من ب
١٢) د : بيته
١٣) د : تدبير
١٤) سقطت الجملة من ب
١٥) سقط من ب
١٦) ب : او الجاهل
١٧) ب : من الشمل
١٨) ب : من الالفة

السنة ، وأمتم البدعة[1] وأبرتم التوحيد بعد اكتمامه[2] وأظهرتموه بعد استخفائه واحتملتم عداوة الجميع دوننا[3] ووترتم الطاعنين[4] في نفوسنا[5]، ونحن لا نطالب ما كنتم تياماً ولا نذكر ما كنتم شهوداً ؛ ونحن مع قلّة علمنا لا نجد أبداً[6] عُمْلنا[7] إلّا مقصّراً عن علمنا ، وأنتم مع اتساع علومكم[8] ، أعمالكم فوق[9] علومكم ؛ لأن كلّ من بذل مجهوده وخاطر بجميع نعمته وكانت الواحدة من نعمه كالجميع من نعم غيره مع خذلان الموافق ونكوص الموازر ثم لم ترده الشدائد إلّا شدّة والوحدة أنسة ، حقيق بالتفضيل والتعظيم والإبانة له بالتقديم[10] .

ولعلّ قائلاً أن يقول : ولمَ[11] أدخله [ب:وجه ٤٤] في جملة صفات أبيه وجلّة مشيخته وأقربيه حيث خصّهم[12] بالتقديم وأبانهم بالتعظيم ، بل كيف يقدّم مَن صغرت[13] سنّه وقلّت تجربته على مَن تقادمت[14] سنّه وكثرت تجربته[15]، وكيف تمكن الطاعة الكبيرة في الأيام القصيرة والشهور[16] اليسيرة ؟ وهل يقول ذلك صاحب تحصيل ومقايسة والبعيد من الملق والمخادعة ؟ »[17] .

وما قلتُ ذلك — حفظك الله — ولا انتحلته إلّا وبرهاني[18] ظاهر[19] وشاهدي [د : وجه ١١٠] حاضر[20] ؛ وذلك « أن للشباب[21] سكرة[22] وطلاحاً وقراعاً وصولة[23] ، والهرم[24] داخل على[25] جميع الأعضاء . وآخذ بقسطه

١) سقط من د
٢) ب : اكتامه
٣) سقط من د
٤) د : الطاعنين
٥) د : تقويدا
٦) سقط من ب
٧) ب : علا
٨) د : قلوبكم
٩) د : وفق
١٠) سقطت الجملة من ب
١١) سقط من د
١٢) ب : خصهم . الله
١٣) ب : صغر
١٤) د : تقاربت
١٥) ب : سقط من : على من
١٦) ب : الشهوة
١٧) سقطت الجملة من ب
١٨) ب : وهو برهاني
١٩) د : حاضر
٢٠) د : شاهد
٢١) د : ان للشاب ؛ ب : اني الشباب
٢٢) ب : سكر
٢٣) ب : وطاح وصولة وقراع
٢٤) ب : والكبر
٢٥) ب : في

من جميع الأجزاء ؛ ألا ترى كيف يكلّ[1] ناظره وسامعه وذائقه وشامّه وهاضمه[2] وعامله ، وكيف تنتقص على مرور الأيام قوّته ، وكذلك قلبه وكلّ ما بطن من أمره ؟ وعلى[3] قدر ما ينتقص[4] من قوى جسمه وينتقص[5] من قوى شهوته ، تخفّ[6] عليه مخالفة هواه ومحاربة[7] نوازعه[8] ؛ فمن[9] حمل على نفسه في كمال[10] شبابه ، وأيام سكرته[11] وفي سلطان حداثته[12] وكمال قوّته[13] ، فطلّقها[14] مرّة وكبحها[15] مرّة أخرى [ب: ظهر ٤٤] وعانى[16] تلك التكاليف وغلب تلك الريح (؟) ، كان أمرن[17] طاعة إذ كان أحمل للمشقّة ؛ وعلى قدر المشقّة تكون المثوبة وتعظم عند الله المنزلة وتقع له في قلوب الناس[18] المحبّة؛ ولذلك قال عمر بن الخطّاب — رضي الله عنه — لسعد بن أبي وقّاص حين وجّهه إلى العراق : « يا سعد بن وُهَيب ، إن الله إذا احبّ عبدًا حبّبه إلى خلقه ؛ وتكبر[19] منزلتك من الله بمنزلتك[20] من الناس ، وأعلم أن ما لك عند الله مثل ما لله عندك »[21] ؛ ونحن نعتبر حالك عند الله بالذي نجد لك[22] في قلوب عباده ، وقد ملّك الله بعض الناس أبدان بعض ولم يملّك القلوب أحدًا غيره .

وأمّا قولهم إن الفراسة[23] مقرونة بالحداثة والحنكة موصولة بطول التجربة، فإن الذهن الجديد والطبع الصحيح والإرادة الوافرة تنال في الأيام اليسيرة وتدرك في الدهور القصيرة ما لا تدركه[24] العقول المزوجة[25] والطبائع[26] المدخولة

---

١) ب : يسل
٢) د : وعاشه
٣) د : على
٤) د : تقص
٥) ب : يتقص
٦) ب : يجب
٧) ب : مجاذبة
٨) د : موادعه
٩) د : لمن
١٠) ب : ايام
١١) سقط من ب
١٢) د : حدثه ؛ ولعل الصواب: جدّته
١٣) د : قويه
١٤) د : نكلفها او قطلقها
١٥) ب : ونكحها
١٦) د : وغابن
١٧) ب : أوزن
١٨) ب : العباد
١٩) د : وكبّر
٢٠) د : بدون نقط
٢١) ب: سقطت الجملة من : ولذلك قال
٢٢) سقط من ب
٢٣) د : التزارة
٢٤) ب : تناله
٢٥) د : المخروجة
٢٦) د : ولا الطبائع

والإرادة الناقصة في الأيام الكثيرة والدهور الطويلة[1] ؛ وربما صادف القابل[2] مع ذكائه وكثرة قوابله[3] وجودة اعتباره زماناً أكثر عجباً وأكثر معتبراً ، وإن كانت شهوده أقل وأيامه أقصر ، فينال مع قلة الأيام ما لا ينال سواه مع كثرتها ولا سيما [د : ظهر ١١٠] إذا أعين بحفظ وأجد من نفسه بفضل بيان ؛ وليس مَن نظر في العلم على الرغبة والشهوة له كمن نظر فيه على المكسبة به والقرب[4] إليه ، لأن النفس لا تسمح بكل قواها إلا مع النشاط والشهوة ، وهي في سوى ذلك لنفسها مستكرهة ولها مكابدة ، والسآمة إلى من كانت هذه صفته أقرب وله ألزم ؛ ولولا ذلك لما ولّى رسول الله -صلعم- مُعاذ بن جَبَل[5] اليَمَن وحمل إليه قبض الصدقات ومحاسبة العمّال وقلّده الأحكام وتعليم[6] الناس الإسلامَ وهو ابن ثماني[7] عشرة سنة ، لا يدفع ذلك صاحبُ خبر ولا حامل أثر ؛ وعلى مثل ذلك عقد لأُسامة بن زيد[8] الإمرة وأبانه بالتقدمة على جلّة الأنصار وكبار المهاجرين وخيار السلف المتقدّمين ؛ وعلى مثل ذلك ولّى عَتّاب بن أَسِيد[9] مكّة وبها عظماء قُرَيش وكبراء[10] العرب وذوو الأخطار من كل قبيلة وذوو الأسنان من كل جيل ، ومكةُ فتح الفتوح وأمّ القرى وخاتمة الهجرة وقبلة العرب وموضع الحرم والموسم الأعظم والحجّ الأكبر والأصل والفخر ؛ وقد رأينا ما بلغ مَخْلَد بن يزيد[11] في السؤدد والمحنة وقَوْد الجيوش والهيبة وهو ابن خمس عشرة سنة ؛ وقد ذكر ذلك الكُمَيت بن زيد[12] فقال[13] :

---

١) اشتباه ب

٢) د : القابل

٣) د : قوابله

٤) د : بدون فقط

٥) معاذ بن جبل صحابي شهير توفي سنة ١٨ ؛ انظر المعارف لابن قتيبة ص ١١١ ؛ والإصابة رقم ٨٠٣٧ ؛ والتهذيب للنووي ص ٥٥٩-٥٦١ الخ

٦) د : ويعلم

٧) د : ثمان

٨) أسامة بن زيد مولى النبي ؛ انظر *Encyclopédie de l'Islam*

٩) عتاب بن اسيد صحابي توفي سنة ١٣ ؛ انظر ترجمتنا لكتاب البخلاء

١٠) د : ولبرا

١١) مخلد بن يزيد بن المهلب قائد الجيوش ؛ انظر المعارف لابن قتيبة ص ١٧٥ و ٢٥٥

١٢) الكميت بن زيد شاعر مات سنة ١٢٦ ؛ راجع *Encyclop. de l'Islam*

١٣) من الكامل ؛ فالبيتان في الاغاني ج ١٥ ص ١٢٨

١— قاد الجيوش لخمسَ عشرة حِجَّةً ولِداتُه عن ذاك في أشغالِ
٢— قعدتْ بهم هِمَماتُه وسَما به هِمَمُ الملوك وسورةُ الأبطالِ

فأما ابن بيض[1] فقال[2] :

١— بلغتَ لعشرٍ مضتْ من سِنِيـ ـك ما يبلغ السيّدُ الأشيَبُ
٢— فهمّك فيها جِسامُ الأمور وهمّ لِداتِك أن يلعبوا

وعلى مثل ذلك قال الفرزدق[3] في يزيد بن المهلّب[4] :

١— ما زال مُذ عقدتْ يداه إزارَه ودَنا وكان بخمسةِ الأشبارِ
٢— وإذا الرجالُ رأوا يزيد رأيتَهم خُضُعَ الرقابِ نواكسَ الأبصارِ

[د:وجه ١١١] وعلى هذا المجرى مدح الشاعرُ من مدح فقال[5] :

ما زلتَ في عقل الكبيرْ وأنت في سِنّ الصغيرْ

وقد رأيتم ما بلغ محمّد بن القاسم[6] من الفتوح العظام والأيّام الجسام والقهر الأعداء وبلوغ المحبّة في الأولياء وهو ابن خمس عشرة سنة ؛ وقد ذكر ذلك زياد الأعجم[7] فقال[8] :

١— ما أن سمعتُ ولا رأيتُ بحيلةً كمحمّد بن القاسم بن محمّدِ
٢— قاد الجيوش لخمسَ عشرة حِجّةً ما قرب ذلك سُؤْدَدًا من مولدِ

وقال الآخر[9] :

إذا المرء أعيتْه المروّة ناشئاً فطلبها كهلاً[10] عليه عسيرُ

---

١) حمزة بن بيض شاعر كوفي ؛ راجع الاغاني ج ١٥ ص ١٥—٢٦
٢) من المتقارب ؛ يمدح في البيتين خلد ابن يزيد ؛ انظر الاغاني ج ١٥ ص ١٥
٣) من الكامل ؛ راجع الديوان (ط الصاوي ج ١ ص ٢٧٦ و ٢٧٨) حيث جاء : فدنا فادرك خمسة الاشبار ؛ راجع ايضاً الخزانة للبغدادي (ج ١ ص ١٩٠ وما يليها)
٤) يزيد بن المهلب من القادة والولاة الامويين ؛ راجع *Encyclopédie de l'Islam*
٥) من الرجز ولا نعلم من قائله
٦) محمد بن القاسم فاتح السند ؛ راجع *Encyclopédie de l'Islam*
٧) زياد الاعجم شاعر اموي ؛ انظر الآداب العربية لـ Nallino
٨) من الكامل
٩) من الطويل ولا نعلم من قائله
١٠) د : كهل

وقال الآخر[1] :

١- إذا ما ترعرع فينا الغلامُ فليس يقال له من هُوَهْ
٢- إذا لم يَسُدْ قبلَ شدِّ الإزار فذلك فينا الذي لا هُوَهْ
٣- ولي صاحبٌ من بَني الشَّيْصَبانِ[2] فطوراً أقول وطوراً هُوَهْ

وزعموا أن عمرو بن سعيد[3] قال له معاوية ، وذلك قبل أن يبلغ ويحتلم : « إلى مَن أوصى بك أبوك ؟ »

قال : « إن أبي أوصى إليَّ ولم يوصِ[4] بي ! » — قال : « فبمَ أوصاك ؟ » — قال : « أوصاني ألّا يفقد إخوانُه منه إلّا وجهَه » .

ولو لم يُعرف ذلك إلّا بعبد الله بن العبّاس وحسده[5] كان دليلًا كافياً[6] وبرهاناً شافياً ؛ فإن الأعجوبة فيه أربَتْ على كلّ عَجَب وقطعت كلّ سبب ، وقد رأيتم حاجة عمر[7] إليه واستشارته إيّاه وتقريمه لعثمان[8] — رضى الله عنهما — وتعبيره عليه ؛ ولو لم يكن للفضيلة من بين أقرانه مستحقّاً وبها [د:ظهر ١١١] مخصوصاً ما خصّه الرسول — صلعم — بالدعوة المستجابة ولمّا خصّه بعلم الكتاب والسنّة ، وهما أرفع العلم وأشرف الذكر ، وبدلك على تقديمه للعناية وإيثاره للتعليم والاستبانة قوله حين قيل له في حداثته وقبل البلوغ في سنّه : « ما الذي آتاك هذا العلمَ وهذا البيان والفهم ؟ » — قال : « قلبٌ عقول ولسان سؤول! » .

وقد عرفتم تحاكم العرب في الجاهليّة في النُّقرة وفي غير[9] ذلك من المخابرة[10] والمشاورة إلى أبي جَهْل بن هشام[11] في أيام حداثته وفتائه[12] ولذلك أدخلوه دار الندوة ودفع ذوي الأسنان والحنكة من بين جميع الشبّان ومن

---

١) من المتقارب ؛ والآخر هو حسان ابن ثابت ؛ انظر الديوان ص ٤٢٣ والحيوان ج ٦ ص ٢٣١ وثمار القلوب للثعالبي ص ٥٥ ؛ فالشيصبان شيطان الشاعر
٢) د : الشيصبان
٣) عمرو بن سعيد الاشدق قائد اموي قتله عبد الملك سنة ٧٠ ؛ راجع *Encyclopédie de l'Islam*
٤) د : يوصِ
٥) د : وجده
٦) د : ذلك كافياً
٧) اي عمر بن الخطاب
٨) اي عثمان بن عفان
٩) د : غير
١٠) د : المخابرة او المخايرة
١١) راجع *Encyclopédie de l'Islam*
١٢) د : وفتايه

بين جميع الفتيان ؛ ولذلك قال قُطبة بن سِنان[1] حكيم فَزَارةَ حين تنافر إليه عامر بن الطُّفَيل[2] وعَلقمة بن عُلاثة[3] :«عليكم بالجديد[4] الذهن الحديث السِّنّ » يعني أبا جهل ؛ فهذا كله دليل واضح وبرهان بيّن .

ولعلّ قائلًا أن يقول :« إنّما الفضل في خشونة المأكل وجُشوبة[5] الملبس ، وليس ذلك لمن مدحتَ ولا هذه صِفة مَن وصفتَ[6] » بهذا باب — أبقاك الله — قد يغلط فيه العاقل ما لم يكن بارعاً والفَطِنُ ما لم يكن ثاقباً والأريب ما لم يكن كاملًا ؛ ولو كان الفضل والرئاسة والقدر والنباهة على قدر تَقَشُّف الجلدة[7] وبَذاذة الهيئة وكثرة الصوم وإيثار الوحشة والسياحة ، لكان عثمان ابن مظعون[8] متقدّماً لأبي بكر الصدّيق — رضوان الله عليه — ولكان بِلال ابن رَباح[9] غامرًا لعثمان بن عفّان — رضي الله عنهما — ؛ وقد قال ابن شِهاب الزُّهري[10] :« ليس الناسك[11] إلّا مَن غلب الحرام صبرُه والحلال شكره ».

فهذا[12] ما حضرَنا من القول وأمكننا من الاحتجاج ، وما أشكّ أن مَن خبر[13] أمرك باكثر[14] من اختباري كان[15] عنده أكثر من علمي ، على[16] أنّ منظرك [د :وجه ١١٢] — أسعدك[17] الله — يُغني عن الخبر [ب: وجه ٤٥]

---

١) هذه القصة معروفة ؛ انظر مثلًا (Caussin de Perceval. *Essai*

٢) عامر بن الطفيل شاعر جاهلي ؛ راجع *Encycl. de l'Islam*

٣) علقمة بن علاثة عداده في الصحابة ؛ راجع الإصابة رقم ٥٦٦٩ ؛ والاغاني ج ١٥ ص ٥٠–٥٦ ، والتهذيب للنووي ص ٤٢٣ الخ

٤) د : بالحديد

٥) د : وخشونة

٦) د : وصفتُ

٧) د : شف للجلده

٨) عثمان بن مظعون صحابي مشهور بزهده ؛ راجع الاصابة رقم ٥٤٥٣ ؛ والتهذيب للنووي ص ٤١٤–٤١٥ الخ

٩) بلال بن رباح مؤذن النبي (وفي د : رباح) ؛ راجع *Encyclopédie de l'Islam*

١٠) ابن شهاب الزهري محدث شهير مات سنة ١٢٤ ؛ راجع *Encyclopédie de l'Islam*

١١) د : الناس

١٢) استئناف ب

١٣) ب : خبر

١٤) د : أكثر

١٥) ب : ان يكون

١٦) ب و د : وعلى

١٧) ب : ابقاك

والفراسة فيك تكفي مؤونة[1] التجربة لك .

وقد تقبّلت[2] — بحمد الله — أخلاق شيخك ، كما تقبّلَ شيخك أخلاق أشياخه[3] واحتذيت[4] على مثاله كما احتذى[5] على مثال مَن كان[6] قبله ؛ ولو لم يتعقّبوا[7] أمرك ويتصفّحوا سيرتك في نفسك ثم في خاصّتك وعامّتك ، لكان في صِدق الفراسة وظهور الخَيلة[8] ما يقضي به المتفرّس[9] ويستدلّ به المتجرّب[10] ؛ وظنُّ العاقل كيقين غيره ؛ قال عمر بن الخطّاب — رضي الله عنه — : « من لم ينتفع بظنّه لم ينتفع بعقله[11] » ؛ وقال أوس بن حَجَر[12] :

الألمعيّ الذي يظنّ بك الـ ـظنّ كأنْ قد رأى وقد سمعا[13]

وقال وهو يمدح ابن كَلَدة[14] بصدق الحسّ وصواب الحَدْس وجودة الظّن[15] :

أريبٌ أديبٌ أخو مأزِقٍ[16] نِقابٌ[17] يُخبّر بالغائبِ

وقال آخر[18] يمدح بمثل ذلك عبد الملك بن مروان[19] :

١ — رأيتُ أبا الوليد غداة جمعٍ به شَيبٌ وما فَقَدَ الشَّبابا

٢ — ولكنْ تحت ذاك الشيب حزمٌ إذا ما ظنّ أمرَضَ[20] أو أصابا

---

١) د : مرمد
٢) د : فضلت
٣) سقط من د
٤) ب : اخذت
٥) ب : اخذ
٦) سقط من ب
٧) د : سمعوا
٨) د : المحبة
٩) د : النفوس
١٠) د : المجرب
١١) د : انك لن تنتفع بعلمه حتى تنتفع بظنه؛ راجع ديوان المعاني للعسكري (ج ١ ص ١٤٠) : وقالت الحكماء : لا ينفع الرجل بعلمه حتى ينتفع بظنه
١٢) اوس بن حجر شاعر جاهلي ؛ انظر *Encyclopédie de l'Islam*؛ فالبيت — من المنسرح — موجود في الحيوان ج٣ ص٥٩ وفي ديوان المعاني ج١ ص١٤٠
١٣) انتهاء ب
١٤) الحارث بن كلدة طبيب العرب في آخر الجاهلية؛ انظر ترجمتنا لكتاب البخلاء
١٥) من المتقارب؛ فورد في الحيوان ج٣ ص٦٠ : مليح نجيح . . . يحدث الغائب
١٦) د : مارق
١٧) د : نعاما
١٨) الآخر هو كُثَيِّر عزّة
١٩) من الوافر ؛ راجع الديوان ط. Pérès ج ٣ ص ٦٨
٢٠) د : اعرض ؛ واعرض = كاد يصيب

وقال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ ﴾[1]، وقال: ﴿ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾[2] وفي ذكره البعضَ دليل على أن سائر ذلك صواب وطاعة .

وكان من أسباب رفعي إليك هذا الكتابَ — أبقاك الله — دون أبي عبدالله[3] — أكرمه الله — أنكما قد تجريان في بعض الأمور مجرًى واحدًا ، ولأنّك ، وإن كنتَ كثير الشغل ، فهو أقلّ فراغاً منك على كثرة شغلك وفرط عنايتك بما استكفاك واسترعاك،وإن جعلتَ لي قسماً من وقت فراغك ونصيباً من ساعة نشاطك رجوت[4] أن تصير إلى ما أملناه عندك مع الإنعام عليّ والاستزادة لشكري ؛ فإن العرب لم تعظّم شيئاً قطّ كتعظيمهم موقعَ الإنعام والشكر والأحدوثة الحسنة والذكر[د:ظهر١١٢]والتبيّغ والاستداد للنِّعَم ، والكفر حائل بين الورد والبدء[5] ؛ قال عنترة[6] :

نُبِّئْتُ بِشرًا غيرَ شاكر نِعمتي والكُفرُ مَخْبَثَةٌ لنفس المُنعِمِ

وقال البَنْدي[7] :

١— فلمْ أُجزَ بالحُسنَى وعادتْ مثاثوي بَلاقعَ يقروها الحَمامُ المُقرْقِرُ
٢— تبدّلتُ بالإحسان سوءا وربما تنكّرَ المعروفَ مَن كان يُكفَرُ

ويدلّ على حبهم للثناء وجميل الذكر قول الأسدي[8] :

فإني أُحبُّ الخُلدَ لو أستطيعُهُ وكالخُلدِ عندي أن أموت ولم أُلَمْ

---

١) سورة ٣٤ آية ١٩
٢) سورة ٤٩ آية ١٢
٣) أحمد بن ابي دؤاد يكنى أبا عبدالله
٤) د : رجوت
٥) د : البدى
٦) من الكامل ؛ البيت من معلقته (عمرًا بدل « بشرًا ») ؛ راجع خزانة البغدادي ج ١ ص ٤٠٤ وما يليها
٧) لعله ابو عطاء السندي ؛ راجع الاغاني ج ١٥ ص ٨١ — ٨٧ ؛ البيت الثاني موجود في البخلاء (ط. الحاجري) ص ٧٨
٨) من الطويل ؛ انظر الحيوان ج ٣ ص ٤٧٥

وقال[1] :

فأثنوا علينا لا أبا لأبيكم بمثماتنا إنّ الثناء هو الخلد

وقال القَنَوي[2] :

فإذا بلغتم أهلكم فتحدّثوا إنّ الحديث مَهالكٌ وخُلودُ

فجعلوا الذكر بالجميل مثل الخلود في النِّعَم ، وعلى هـذا المعنى قال[3] في دَرَك الثناء.[4] :

فقتلًا بقتلٍ وعَقرًا بعَقرِكم جزاء العطاش لا يموت من أثأرِ[5]

وقال حكيم الفُرس حين بلغه موت الإسكندر وهو قاتل دارا بن دارا : « ما ظننتُ ان قاتل دارا يموت » ؛ وهذا القول هو له أمدح منه لقاتله ، ولم أسمع للعَجَم كلمةً قطُّ أمدح منها ؛ فأمّا العرب فقد أصبتُ لهم من هذا الضرب كلاماً كثيرًا .

ومما يدلّ على عِظَم الشكر عند الشاكر والمشكور له من العرب قولُ أوس بن حَجَر في جليسةٍ :

سنجزيكِ أو يجزيكِ عنّا [مديحُنا][6] وحسبُك أن نُثني عليك وتحمَدي

وقال بعض الشعراء.[7] :

[د:وجه١١٣]فلم أجزه إلّا الشكر جاهدًا وحسبُك مني أن أقول فأحمدا

وكانوا يرون الذكر(؟)[8] ما لا يراه غيرهم؛ قال امرؤ القيس بن حُجر[9] :

. . . . . وجرحُ اللسان كجرح اليدِ

---

١) من الطويل ؛ فالبيت منزو الى الحادرة في الحيوان ج ٣ ص ٤٧٥

٢) من الكامل ؛ فالبيت موجود في الحيوان ج ٣ ص ٤٧٥ :

فاذا بلغتم ارضكم فتحدثوا من الحديث مثالث وخلود

اما القنوي فهو طُفَيل القنوي شاعر جاهلي ؛ راجع *Brockelmann*

٣) اي مهلهل ؛ راجع الحيوان ج ٣ ص ٤٧٦ ٤) من الطويل

٥) د : ورد البيت كما يأتي :

مهلا مهلهل وعفوا لعفوكم حرز العطاس لا يموت

٦) زيادة تقتضيها اقامة الوزن ٨) د : الذنب او الذئب

٧) من الطويل ولا نعلم من قائله ٩) من المتقارب وصدر البيت :

ولو عن نثا غيره جاءني

وقال جرير[1] :

ولَلسيف أسوى وقعه من لسانِنا

في أشعار كثيرة .

ولست[2] أمتّ إليك — * أكرمك الله[3] — بعد التوحيد ونفي التشبيه ونُصرتي للدين بأمرٍ أنا به أوثق من رغبتك في شكر الكرام والأحدوثة الحسنة ، قال الله — عزّ وجلّ — * لنبيه — صلعم[4] — : ﴿ وَرَفَعْنا لكَ ذِكْرَكَ ﴾[5] ، وقال تعالى : ﴿ وإنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾[6] [ل ب:ظهر ٤٥] * وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنا إلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾[7] ؛ فلو كان حبّ الذكر خطيئةً لَمَا رغّبهم فيه * ولَمَا عدّه[8] في نِعَمه .

ولعلّ قائلًا أن يقول: « وكيف لم[9] يذكُر أميرَ المؤمنين * المعتصم بربّ[10] العالمين الذي * حقّق الله بـه الدين[11] وسدّ بـه الثغور[12] * وردّ به المظالم[13] وحسم[14] به عرق البغي ونواجم الفتنة ، الذي لم يزل الله[15] يزيده في كلّ طرفة محبّةً ومع كلّ محبّة هيبةً ومع كلّ نعمة شكرًا ومع كلّ شكر فضلًا ، وهو المبتدئ لهذا الأمر * والدّال عليه[16] والقائم به ، والقطب الذي عليه تدور الرحى وعلى مثاله احتذى * ومَن احتذى[17] وبلسانه نطق وعن رأيه صدر وبيُمن نقيبته[18] ظهر وبفضل قوّته نهض[19] وهو أوّل هذا الأمر ووسطه وبه يتمّ أمره[20] إن شاء الله تعالى » ، قلنا إنّ عقل الرسول يدلّ على مُرسِله[21] واعتدال القناة

---

١) يظهر ان هذا عجز بيت من الطويل غير اننا لم نعثر عليه في ديوان جرير

٢) استئناف ب

٣) سقط من ب

٤) سقط من د

٥) سورة ٩٤ آية ٤

٦) سورة ٤٣ آية ٤٣

٧) سورة ٢١ آية ١٠ ، سقطت من د

٨) د : ولا عد

٩) ب : ولم

١٠) د : والمعتصم نور

١١) ب : حقن الله به الدماء

١٢) تريد ب : وردها

١٣) سقط من ب

١٤) د : وجسم

١٥) سقط من ب

١٦) سقط من د

١٧) سقط من ب

١٨) د : همته

١٩) ب : علق

٢٠) سقط من د

٢١) اشارة الى قول محمول على علي بن ابي طالب : رسولك ترجمان عقلك ؛ انظر امثال الميداني ج ٢ ص ٤٢٣

يدلّ[1] على حذق[2] المثقف[3]، ومديحُنا[4] [ب : وجه٤٦] الوزيرَ[5] راجع إلى من اختاره[6] ومديحُنا له غير راجع إلى وزيره والمحتذي على مثاله[7]؛ بل قد علم الناس أن الحظّ الأكبر * والنصيب الأوفر[8] للآمر دون المطيع وللمعلّم[9] دون القابل[10]، لأن[11] المسبّب في عدالة العقول[12] وعند[13] النظر والتحصيل أفضلُ من المسبَّب[14] والمتبوع خير من التابع؛ ألا ترى أن مَن مدح الأنصار فهو * للنبي — صلعم —[15] وللمهاجرين أمدح؛ * وإن لم يظهر ذكرهم في الوصف[16]؟ [د:ظهر ١١٣] قال جرير[17]:

[نبيهم قرشي والأنصار الصابرين (؟)]

وقال رؤبة[18]:

[ومن على المنبر .... والمنبر (؟)] .

وربّما كانت الكناية أبلغ في التعظيم وأدعى إلى التقديم من الإفصاح والشرح[19] ولربّما أبان[20] السكوتُ[21] عمّا يعجز عنه القول وقد يبلغ[22] [المرء] أقصى حاجته وغاية أمنيّته بالإيماء والإشارة حتى يكون تكلُّف القول فضلًا والكلام خطلًا؛ [ولربّما كان اللسان أنفذ من السنان وأقطع من السيف اليماني] —[23].

---

١) ب : دليل
٢) ب : حد
٣) د : المثعب
٤) ب : ومدحنا ؛ د : ومديحك
٥) ب : للوزير
٦) حذفنا [من د فقط] الكلمات الآتية : وان تصويب ظن المتفرس فيه ؛ فهي في غير موضعها
٧) سقطت من ب الجملة من : وان تصويب الخ
٨) سقط من د
٩) ب : والمعلم
١٠) د : القابل
١١) د : ولان
١٢) سقط من د
١٣) ب : وجيد
١٤) ب : المكتب
١٥) سقط من ب
١٦) سقط من ب
١٧) كذا في د ؛ وفي ب : تلكم قريش قريش والانصار الصابرين ؛ ولم نعثر على البيت في مراجعنا
١٨) رؤبة بن العجاج راجز بصري ؛ راجع *Nallino* ؛ فلم نعثر على البيت فيما نشر من شعر رؤبة
١٩) سقط من ب
٢٠) د : اتى من
٢١) ب : السكون
٢٢) د : بلغ
٢٣) لعل هذه الجملة زائدة

وما عسى أن أقول فيمن قد قوي عقله بطبيعته وانتصف عزمه من شهوته وكان عمله وفق علمه وعلمه غامرًا لحصه ؟ وقد يجرى الملك على عرق صالح ومنشإ سوء ، فيقدح ذلك في عرقه وإن لم يستأصله ، وقد يكون له عرق صالح ومنشأ صدق وتكون أداته تامة ويكون مُؤثرًا لهواه ، فيكون في الاسم وفي ظاهر الحكم كمن فسد عرقه وخبث منشؤه[1] ؛ وقد جمع الله لأمير المؤمنين مع[2] كرم العرق[3] وصلاح المنشإ ، البعدَ[4] من إيثار الهوى ؛ وما رأينا[5] أفعالاً[6] أشبه بأخلاق ولا أخلاقاً أشبه بأعراق من أفعاله بأخلاقه وأخلاقه بأعراقه[7] .

فنسأل الله الذي أسعدنا[8] [ب :ظهر٤٦] بخلافته أن يمنّ علينا بطول بقائه وأن يخصّنا بحسن نظره كما خصّنا بمعرفة حقّه والاحتجاج لملكه والذبّ عن سلطانه[9] .

* أطال الله بقاءك وحفظك وأتمّ نعمته عليك وكرامته لك[10] .

تمت الرسالة

١) سقط من ب من : وقد يبلغ
٢) سقط من ب
٣) د : العروق
٤) ب : والبعد
٥) وهل رأيت
٦) ب : فعلا
٧) ب : وضعت هنا الجملة : وما عسى ان اقول ..... لحصه
٨) د : اسندنا
٩) ب : وضعت هنا الجملة : وربما كانت الكفاية... يعجز عنه القول
١٠) سقط من ب